الوسطية فى الإسلام

Moderation in Islamic Perspective

د- صاحب اسلام *

ABSTRACT:

Islam is a complete code of life for all human beings. It provides guidance in all walks of life.
It also gives guarantee of a prosperous and peaceful life in this world as well as guarantee of eternal happiness in life after death. It has many characteristics one of which is the quality of moderation . It enjoins its followers to hold this quality in all walks of life. Islam stresses upon its followers to observe it, as it observance keep us away from many difficulties and assures a peaceful and balanced life. The canvas of Moderation is not restricted to one field of life but it encompasses the whole of it. It should be observed is in faith matters, in worships, in ethical behavior, in individual as well as in collective life. When it is observed in its letter and spirit, then positive results will come out and this will be helpful in solution of many problems faced by the Muslim Ummah like injustices in society, terrorism, anarchy and social strife etc. and ultimately there would the establishment of a just and a balanced society.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [1]

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

* استاذ مشارك بمركز الشيخ زايد الإسلامي، جامعة بيشاور.

المقدمة:

إن عقيدة الوسطية فى الإسلام موجودة بيانه فى القرآن والهدي والنبوي، والهدف من الحديث عن هذا المبحث هو إقناع المسلم بأنه يتبع دين الوسط بأنه يتبع دين الوسط وأعدل الديانات كلها، وأن مبادئ هذا الدين وأحكامه ومقايسه هى المبادئ السليمة الكفيلة بإسعاد الفرد والمجتمع، وإسعاد الفرد في الدنيا والآخرة وإقناع غير المسلم بهذا المعنى حتى لا يتصور الإسلام دعوة عصبية أو قاصرة عما يكفل الحياة السعيدة للبشرية جمعاء، وأن يعرف أن ما جاء به الإسلام إنّما هو برنامج عملى إصلاحي لها. قال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[٢] وهذه الفكرة تشكل أحد مميزات الدين الإسلامي.

أهمية الوسطية في الإسلام:

الوسطية من مميزات هذه الأمة وهى سبب خيريتها ولا تزال الأمة الإسلامية بخير ما قامت على هذه الخاصة التي تتميز بها خاصية الوسطية التى تمثل الاعتدال والاستقامة على دين الله تعالى فإذا خرجت عن الوسط فرطت وأفرطت والافراط والتفريط كلاهما مهلكة.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي:[٣]

الوسطية من أبرز خصائص الإسلام، ويعبر عنها أيضا بـــــــــ "التوازن"، ونعني بها التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغي علي مقابله ويحيف عليه.

مثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة: الربانية والإنسانية، الروحية والمادية، الأخروية والدنيوية، الوحى والعقل، الماضوية والمستقبلية، الفردية والجماعية، الواقعية والمثالية، الثبات والتغير، وما شابهها. ومعنى التوازن بينها: أن يفسح لكل طرف منها مجاله، ويعطي حقه "بالقسط" أو "بالقسطاس المستقيم"، بلا وكس ولا شطط، ولا غلو ولا تقصير، ولا طغيان ولا إخسار. كما أشار إلى ذلك كتاب الله بقوله: (والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)[٤].

المقصود من الوسطية:

والمقصود من الوسطية أن يتحري المسلم الاعتدال ويبتعد عن التطرف فى الأقوال والأفغال بحيث لا يغلو ولا يقصر.

فالإفراط والتفريط مذمومان وقد نهي الله عنهما وذم أهلهما، فقال تعالى: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ)[٥] أى ولا تنحرفوا عما حد لكم بإفراط أو تفريط فإن كلا طرفي قصد الأمور ذميم.[٦]

عن ابن عباس رضي الله عنه: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة العقبة: وهو على راحلته (هات القط لي) فجمعت له حصيات هن حصي الخذف فلمّا وضعتهنّ فى يده قال: (أمثال هؤلاء وإيّاكم والغلو فى الدين فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين).[٧]

وقال تعالى: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا (أي في حق تلك الساعة بترك العمل النافع وهم وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ).[٨]تصوير لحالهم[٩] .

وقد نهى الله تعالى عن طاعة هؤلاء وأمر بمخالفتهم فقال تعالى: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)[١٠] أي متجاوزا عن حد الاعتدال.[١١]

فمتى أزال الإفراط والتفريط فقد اعتدل المسلم على أوسط الطريق واستقام على الصراط المستقيم كما أمر الله (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ)[١٢]. أى هذا الصراط الذي أسلكه وأدعوا إليه مستقيما لا إعوجاج فيه فاتبعوه أي اقتفوا أثره واعملوا به ولا تتبعوا الضلالات.[١٣]

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يسألوه (اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ)،[١٤] فالمغضوب علهيم وهم اليهود فرطوا وقصّروا، والضّالين وهم النّصاري غلو وأفرطوا وتشددوا حتي ابتدعوا، والصّراط المستقيم الذى هدى إليه النّبيين والصديقين والشهداء والصالحين هو العمل بالعلم فى غير إفراط ولا تفريط، وقد أنعم الله علي أمة محمد- صلى الله عليه وسلم- بالهداية إلى هذا الصراط المستقيم فكانوا بذلك أمة وسطاً، قال تعالى: (سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)[١٥] أى خيارا أو عدولا مزكين بالعلم والعمل وهو فى الأصل اسم للمكان الذى تستوى إليه المساحة من الجوانب ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط كالجود بين الإسراف والبخل والشجاعة بين التطهور والجبن.[١٦]

تمثيل الوسطية في القرآن والسنة النبوية:

فالوسطية تعني اتّباع الصراط المستقيم والثبات عليه والحذر من الميل إلى أحد جانبيه، ولقد ضرب النبي- صلى الله عليه وسلم- لذلك مثلاً محسوساً:

فعن جابر بن عبد الله قال: كنّا عند النبي- صلى الله عليه وسلم- فخط خطأ وخط خطين عن يمينه وخط خطين عن يساره ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال: (هذا سبيل الله) ثم تلا هذه الآية (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ).[١٧]

قال ابن القيم[١٨]: (وهذا الصراط المستقيم الذى وصانا الله تعالى باتباعه هو الصراط الذى كان عليه النبى- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، وهو قصد السبيل، وما خرج عنه فهو من السبل الجائرة، لكن الجور قد يكون جوراً عظيما عن الصراط وقد يكون يسيراً، وبين ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، وهذا كالطريق الحسى فإن السالك قد يعدل عنه ويجور جوراً فاحشاً وقد يجور دون ذلك، فالميزان تعرف به الاستقامة على الطريق والجور عنه هو ما كان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وأصحابه عليه، والجائر عنه إمّا مفرط ظالم، أو مجتهد متأول، أو مقلد جاهل، وكل ذلك قد نهى الله عنه فلم يبق إلا الاقتصاد والاعتصام بالسنة وعليهما مدار الدين.

معنى الوسطية لغة واصطلاحا:

والوسطية من الوسط ووسط الشيء خياره وعدله وأفضله. ورد ذكر الوسط فى القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا).[١٩]

ومعناه كله من خير مكان فيه وكذلك النبى من خير مكان فى نسب العرب وكذلك جعلت أمته أمة وسطاً أى خياراً.[٢٠]

الوسطية اصطلاحاً:

هو تطبيق شرع الله وفق منهاجه الذي وضعه لعباده بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم تطبيقا عدلاً قواماً، لا غلوّ فيه ولا جفاء، ولا إفراط فيه ولا تفريط.

وهذا التعريف تخرج بها الوسطية المزيفة، وهو التى اتخذ أصحابها من خليط الآراء منهاجا سموه (وسطية واعتدالا)، وانحرفوا عن الوسطية الحقة وهي الخيرية التى تتحقق بتطبيق شرع الله وفق منهاجه الذي وضعه لعباده بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم تطبيقا عدلا قواما من غير إفراط ولا تفريط.

قال الدكتور يوسف القرضاوي في المفهوم الوسطية:

من قديم تعرضت لبيان مفهوم (الوسطية) وخصائصها ومظاهرها، وذلك في كتابي (الخصائص العامة للإسلام)باعتبار (الوسطية) من أبرز خصائص الإسلام، وعبر عنها أيضاً بـ (التوازن) أو (الاعتدال)، ونعني بها التوسط أو التعادل بين طرفين أو متضادين؛ بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغي علي مقابله ويحيف عليه.

مثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة: الربانية والإنسانية، الروحية والمادية، الأخروية والدنيوية، الوحي والعقل، الماضوية والمستقبلية، الفردية والجماعية، الواقعية والمثالية، الثبات والتغير، وما شابهها.[٢١]

فالإسلام دين الوسطية فى كل شيء فهو وسط بين الإفراط والتفريط وبين الغلو والتهاون، فالوسطية فى الإسلام إذا منهج في الحياة، والأخلاف، والعلاقات الفردية والجماعية، وكذا في العبادات.

الوسطية فى الإسلام ترسم منهجا شاملا:

الوسطيةتمثل منهجا شاملا متكاملاً فى العقيدة والعبادة والقيم والسلوك والمعاملة والتفاعل الحضاري. للوسطية في الإسلام جوانب كثيرة أبرزها:

١. الوسطية في العقيدة، فإن الله تعالى قد فطر الناس على سلامة المعتقد وقد فطروا على الحنفية السمحة، قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- (عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه كان يقول:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودّانه وينصّرانه ويمحسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء[٢٢] وقال تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)[٢٣] وقال أيضا: قل يا أهل الكتاب تعالو إلي كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[٢٤].

٢. الوسطية فى العبادة: قال تعالى: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسني ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً).[٢٥]

والإسلام وسط في عبادته، وشعائره بين الأديان والنّحل التي الغت الجانب "الرباني"- جانب العبادة والتنسك والتأله- من فلسفتها وواجباتها، كالبوذية التي اقصرت فرضها على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده... وبين الأديان والنحل التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والانتاج، كالرهبانية المسيحية.

ومن أوضح دلائل نذكره هنا: الآيات الآمرة بصلاة الجمعة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)[٢٦]

فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة حتي في يوم الجمعة: بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة، ثم سعي إلى ذكر الله وإلى الصلاة، وترك للبيع والشراء وأما أشبهه من مشاغل الحياة، ثم انتشار في الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة، مع عدم الغلة عن ذكر الله كثيراً فى كل حال، فهو أساس الفلاح والنجاح.

٣. الوسطية فى القيم والسلوك: قال تعالى: (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[٢٧] (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)[٢٨].

٤. الوسطية فى المعاملة: قال تعالى: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[٢٩]

٥. الوسطية في المنهج والالتزام بالطريق السوي قال تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[٣٠]

٦. الوسطية في السلوك الإنساني بين حظ الدنيا والآخرة. قال تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)[٣١]. وجاء في الأثر: (إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)[٣٢] وصح عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قوله: (إن لربك عليك حقا ولبدنك عليك حقا ولأهلك

عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه)[٣٣]. فالإنسان يتكون من روح وعقل وجسد ومشاعر وعواطف، مطلوب أن يغذي العقل بالعلم والمعرفة والثقافة، وأن تغذي الروح بالتزكية، وأن يغذي البدن بالغذاء وبالماء والهواء والنشاط، فالوسطية فى الإسلام تلبي كل هذه الجوانب وتحقق كل هذه الرغبات.

٧. وسطية الدعوة إلى الله تعالى: وهي التي تقوم علي مبدأين، التيسير في الفتوى، والتبشير فى الدعوة، وهذا ينبني علي أصل عظيم، فعندما بعث الرسول- صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل وأبا موسي الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن قال: (بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا). (١٨) فعمل الرسول- صلى الله عليه وسلم- على التيسير بالفتوى ليبقي الإنسان في إطار المشروعية الدينية، والبشارة في الدعوة لأن البشارة جزء من مدلول الرحمة التي وسعت كل الخلق مؤمنا كان تابعا لمحمد- صلى الله عليه وسلم- أو مسالما مهادنا أو مداجيا مخالفا، وسواء كان جمادا أصما أو حيوانا أعجما أو نباتا أحضرا فقد وسعتهم هذه الرحمة. إن الدعوة إلى الله من أعظم القربات، وكفاها فخرا وعزا أنها وظيفة الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهذه المهمة جعلها رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ملقاة على عاتق العلماء المخلصين والدعاة الصادقين في قوله عليه السلام : (بلغوا عني ولو آية)[٣٤] وهذا أرفع أنواع العلم.

٨. الوسطية في التحديد والاجتهاد الذي يقوم على ركنين: اعتماد على الأصول واتصال بالعصر، أما الاعتماد على الأصول فيتمثل بالاعتماد على الشرعية القائمة على الثوابت الكبرى وهي حفظ الضروريات الست: حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ النسل وحفظ العرض وحفظ العقل وحفظ المال، والمحافظة علي قطعيات الشريعة وأحكامها وعلى الفرائض وعلى القيم الأخلاقية. وإن شريعة الإسلام قد اتسعت في كل عصر وزمان عبر آلة الاجتهاد والتحديد، ولهذا قال فقهاؤنا في باب الوسطية: إن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال والأعراف، فهذا أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا الإمام أبي حنيفة[٣٥] قد خالفا إمامهما في كثير من مسائل الفقه وقالا: لو رأي إمامنا ما رأينا لغير رأيه بناء على ما طرأ من تغير الزمان والمكان وتطور في مسيرة الحياة. وإذن فأعمال الاجتهاد والتحديد ضرورة ملحة لاستيعاب قضايا العصر ومتطلبات الحياة من خلال الثبات علي مقاصد

الشريعة وقواعدها العامة ومبادئها الكلية مع المرونة في الوسائل ودقة الفهم وإدراك المصلحة.

٩. وسطية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من الصفات الخيرة في هذه الأمة. قال تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ)[٣٦]. ولكن لابد من الحكمة عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنظر في مجريات الأمور، وما ينشأ عن هذا الأمر من تحقيق المصالح ودفع المفاسد، ولا بد من الموازنة بين الخير والشر، وما يترتب علي هذا التصرف من آثار. وهذا يتمثل فيما قاله الإمام سفيان الثوري رحمه الله: لابد لمن يامر بالمعروف أو ينهي عن النكر أن يتحقق فيه ثلاث: أن يكون عالما بما يأمر به،عدلا فيما ينهي عنه، رفيقا فيما يأمر به، رفيقا فيما ينهى عنه.وقد أثر عن الإمام الجليل شيخ الإسلام أحمد بن تيمية أنه مرّ مع أصحابه علي أناس من التتار الذين غزو بلاد الشام وكانوا سكاري فأراد من كان مع التغيير عليهم فنهاهم الإمام ابن تيمية لأن أمامه مفسدتان: مفسدة شرب الخمر وهى منكر غير انها جريمة قاصرة، والمفسدة الثانية قتل المسلمين وازهاق ارواحهم وسفك دمائهم ولهذا قال الإمام الجليل: دعوهم إنما نهي الله عنه الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلاء إنما تصدهم الخمر عن قتل المسلمين وإراقة دمائهم، ولزوال الدنيا بأسرها أهون على الله من إراقة دم مسلم بغير حق.

١٠. الوسطية في التفاعل الحضاري:

فنحن أمة نعيش ضمن قرية كونية زالت فيها حواجز الزمان والمكان،وليس لنا من سبيل أن ننطوي على أنفسنا أونتوقع على ذاتنا، حيث لابد من تبادل المنافع ورعاية المصالح ومد الجسور مع الآخرين، والتفاعل الإيجابي من غير أن تذوب شخصيتنا وخصوصية حضارتنا، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها وممن جاء بها. فهذه قاعدة التفاعل الحضاري نرعى المنافع وتبادل المصالح لتحقيق السلم والأمن بين الشعوب في ظل موازين لا تختل فيها قيم العدالة وإنّما نلتتزم العدل.

١١. وسطية الإسلام في الأخلاق:

والإسلام وسط في الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكا أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوه حيوانا أو كالحيوان، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية فاعتبروها خيرا محضا، وهؤلاء أسآء وا بها الظن، فعدّوها شرا خالصا،و كانت نظرة الإسلام وسطا بين أولئك وهؤلاء. فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مركب فيه العقل، وفيه الشهوة، فيه غريزة الحيوان، وروحانية الملاك، قد هدى للنجدين،وهيأ بفطرته لسلوك السبلين، إما شاكرا وإما كفورا. فيه استعداد للفجور استعداده للتقوى. ومهمته جهاد نفسه ورياضتهاحتى يتزكى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)[٣٧].

١٢. وسطية الإسلام في التشريع:

والإسلام وسط كذلك في تشريعه ونظامه القانوني والاجتماعى، وأبرز ما تتجلي فيه الوسطية هنا: مجال الفردية والاجتماعية.

١٣. التوازن بين الفردية والجماعية:

وفي النظام الإسلامي تلتقي الفردية والجماعية في صورة متزلة رائعة، تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات، وتتوزع فيها المغانم والتبعات بالقسطاس المستقيم. لقد تخبطت الفلسفات والمذاهب من قديم، في قضية الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما: هل الفرد هو الأصل والمجتمع طارئ مفروض عليه، لأن المجتمع إنّما يتكون من الأفراد؟ أم المجتمع هو الأساس والفرد نافلة، لأن الفرد بدون المجتمع مادة غفل والمجتمع هو الذي يشكلها ويعطيها صورها، فالمجتمع هو الذي يورث الفرد ثقافته وآدابه وعاداته وغير ذلك.

١٤. الوسطية في الإنفاق: ويدل عليه، قول الله تعالى: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا)[٣٨] وقوله تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)[٣٩].

١٥. الوسطية في الحب والبغض: عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: "أحبب حبيبك هونا ما عسي أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسي أن يكون حبيبك يوما ما".[٤٠]

١٦. الوسطية فى احترام الآخرين وحسن إقامة العلاقة معهم وتوقيرهم: فالإسلام ينهى عن القطعية والهجر، كما جاء في حديث أنس بن مالك- رضى الله عنه- أن الرسول- صلى الله عليه وسلم- قال: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث أيام"[٤١] منل يحرم الإسلام الغلو فى التعظيم، فقد روي عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- عن النبى- صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "لا تطروني كما أطرت النصاري عيسي ابن مريم فإنّما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله".[٤٢]

١٧. الوسطية فى التعامل مع العدو: نهى الإسلام عن الظلم، والبغى حتى مع العدو، قال تعالى: (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)[٤٣]، وقال سبحانه (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)[٤٤] وأعطى الحق للمظلوم حتى ينتصر فقال سبحانه: (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ)[٤٥] وقال (وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ)[٤٦]، وجعل من صفات المنافق مجاوزة الحد فى الخصومة، ففي الحديث: "وإذا خاصم فجر".[٤٧]

من مزايا الوسطية وفوائدها:

ولقد كان من حكمة الله تعالى أن اختار الوسطية شعارا مميزا لهذه الأمة التى هى آخر الأمم، ولهذه الرسالة التي ختم بها الرسالات الإلهية، وبعث بها خاتم أنبيائه، رسولا للناس جميعا، ورحمة للعالمين.

فقد يجوز في رسالة مرحلية محدودة الزمان والإطار أن تعالج التطرف في قضية ما بتطرف مضاد، فإذا كان هناك مبالغة في الدعوة إلى الواقعية قومت بمبالغة مقابلة في الدعوة إلى المثالية، وإذا كان هناك غلو فى النزعة المادية... رد عليها بغلو معاكس في النزعة إلى الروحية، كما رأينا ذلك في الديانة المسيحية وموقفها من النزعة المادية الواقعية عند اليهود والرومان، فإذا أدت الدعوة المرحلية دورها الموقوت، وحدت من الغلو، ولو بغلو مثله... كان لابد من العودة إلى الحد الوسط، وإلى الصراط السوي؛ فتعتدل كفتا الميزان. وهذا ما جاءت به رسالة الإسلام بوصفها رسالة عالمية خالدة على أن فى الوسطية معاني أخرى تميز منهج الإسلام وأمة الإسلام وتجعلها أهلا للسيادة والخلود.

١. الوسطية تعنى العدل:

فمن معاني الوسطية التي وصفت بها هذه الأمة في الآية الكريمة ورتبت عليها شهادتها علي البشرية كلها: العدل، الذى هو ضرورة لقبول شهادة الشاهد، فمن لم يكن عدلا، فإن شهادته مرفوضة مردودة، أما الشاهد العدل والحكم العدل فهو المرضي بين الناس كافة.

وتفسير الوسط في الآية بالعدل ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد روي الإمام أحمد والبخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الوسط هنا بالعدل؛ والعدل والتوسط والتوازن عبارات متقاربة المعنى؛ فالعدل فى الحقيقة توسط بين الطرفين المتنازعين أو الأطراف المتنازعة دون ميل أو تحيز إلى أحدهما. وهو بعبارة أخرى: موازنة بين هذه الأطراف؛ حيث يعطى كل منها حقه دون بخس ولا جور عليه، ولا محاباة له.

وقال المفسرون في قوله تعالى: (قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون)[48]، أي: أعدلهم. يؤكد هذا الإمام الرازي في تفسيره بقوله: إن أعدل بقاع الشيء وسطه؛ لأن حكمه مع سائر الأطراف علي سواء، وعلي اعتدال.

ويقول المفسر أبو السعود: الوسط في الأصل لما تستوي نسبة الجوانب إليه كمركز الدائرة، ثم استعير للخصال البشرية المحمودة، لكون تلك الخصال أوساطا للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرف الإفراط والتفريط..

فالوسط يعني إذن العدل والاعتدال، وبعبارة أخرى: يعني التعادل والتوازن، بلا جنوح إلى الغلو ولا إلى التقصير.

٢. الوسطية تعني الاستقامة:

والوسطية تعني كذلك استقامة المنهج، والبعد عن الميل والانحراف. فالمنهج المستقيم وبتعبير القرآن: (الصراط المستقيم) هو- كما عبر أحد المفسرين- الطريق السوي الواقع وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجوانب، فإذا فرضنا خطوطا كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين؛ فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع فى وسط تلك الخطوط المنحنية، ومن ضرورة كونه وسطا بين الطرق الجائرة أن تكون الأمة المهدية إليه وسطا بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة.

ومن هنا علم الإسلام المسلم أن يسأل الله الهداية للصـراط المسـتقيم كـل يـوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة، هي عدد ركعات الصـلوات الخمـس المفروضـة في اليـوم والليلة. وذلك حين يقرأ فاتحة الكتاب في صلاته فيقـول داعيـا ربـه: (اهـدِنَا الصِّـرَاطَ المُستَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ)[٤٩].

والإسلام وحده ينفرد بهذه الميزة (الوسـطية) دون غـيره مـن الملـل والأديـان. جاء في التفسير المأثور: التمثيل للمغضوب عليهم باليهود، وللضالين بالنصاري).

والمغنى في ذلك: أن كلا من اليهود والنصـارى يمثلـون الإفـراط والتفـريط في كثير من القضايا: فاليهود قتلوا الأنبياء، والنصاري جعلـوهم آلهـة... اليهـود أسـرفوا في التحريم، والنصارى أسرفوا في التحليل، حتى قالوا: كل شـيء طيـب للطيـبين... اليهـود غلوا فى الجانب المادي، والنصاري قصروا فيه... اليهـود تطرفـوا في اعتبـار الرسـوم في الشعائر والتعبدات، والنصارى تطرفوا في إلغائها.

والإسلام يعلم المسلم أن يحذر من تطـرف كـلا الفـريقين، وأن يلتـزم المنـهج الوسط، أو الصراط المستقيم، الذي سار عليه كل من رضـي الله عنـهم وأنعـم علـيهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

٣. الوسطية دليل الخيرية:

والوسطية كـذلك دليـل الخيريـة، ومظهـر الفضـل والتميـز، في الماديـات والمعنويات؛ ففي الأمور المادية نرى أفضل حيات العقد واسـطته، ونـري رئـيس القـوم في الوسط والأتباع من حوله... وفي الأمور المعنويـة نجـد التوسـط دائمـا خـيرا مـن التطرف.

ولهذا قال العـرب في حكمهـم: (خـير الأمـور الوسـط)، وقـال أرسـطو: (الفضيلة وسط رذيلتين). ومن هنا قال ابن كثير فى قوله تعـالى: (أُمَّـةً وَسَـطاً) الوسـط ههنا: الخيار والأجود. كما يقـال: قـريش أوسـط العـرب نسـبا ودارا: أى خيرهـا، وكان رسول الله– صلى الله عليه وسلم– وسطا فى قومـه؛ أي: أشـرفهم نسـبا، ومنـه: الصلاة الوسطى، التي هى أفضل الصلوات.

٤. الوسطية تمثل الأمان:

كما أن الوسطية تمثل منطقة الأمان والبعد عن الخطر؟ فالأطراف عادة تتعرض للخطر والفساد أكثر من غيرها، بخلاف الوسط، فهو محمى ومحروس بما حوله.

٥. الوسطية دليل القوة:

الوسطية أيضا دليل القوة؟ فالوسط هو مركز القوة، ألا ترى الشباب الذي يمثل مرحلة القوة وسطا بين ضعفين: ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة؟ والشمس في وسط النهار أقوي منها في أول النهار وآخره.

٦. الوسطية تمثل مركز الوحدة ونقطة التلاقي... فعلى حين تتعدد الأطراف تعددا قد لا يتناهى، يبقي الوسط واحدا، يمكن لكل الأطراف أن تقتفى عنده؛ فهو المنتصف، وهو المركز، وهذا واضح في الجانب المادي والجانب الفكري والمعنوي على سواء.

ومركز الدائرة فى وسطها يمكن لكل الخطوط الآتية من المحيط أن تلتقى عنده، والفكرة الوسط يمكن أن تلتقي بها الأفكار المتطرفة فى نقطة ما: هى نقطة التوازن والاعتدال، كما أن التعدد والاختلاف الفكري يكون حتميا كلما وجد التطرف،وتكون حدته وشدته بقدر حدة هذا التطرف. أما التوسط والاعتدال فهو طريق الوحدة الفكرية ومركزها ومنبعها. ولهذا تثير المذاهب والأفكار المتطرفة من الفرقة والخلاف بين أبناء الأمة الواحدة ما لا تثيره المذاهب المعتدلة في العادة.

لهذه المزايا والفوائد التى ذكرناها للوسطية: حرص الإسلام على أن تكون إحدى خصائصه العامة، وأن تتجلى فى كل مقوماته بوضوح.[٥]

الهوامش

١ــ البقرة :١٤٣

٢ــ سورة الأنبياء ١٠٧

٣ــ بينات الحل الاسلامي ، صــ ٤٩ للدكتور يوسف القرضاوي ــ مؤسسة الرسالة ــ

٤ــ الرحمن ٩.

٥. هود:١١٢

[٦]. إرشادالعقل السليم إلىمزايا القرآن الكريم، ج٤/٥٤٢، لمحمد بن محمد العماديأبو السعود طبع: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

[٧]. رواه النسائي، ج٥،ص٢٦٨، رقمالحديث: ٣٠٥٧ لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائى، طبع: مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب الطبعة الثانية، ١٤٠٦-١٩٨٦، هذا حديث صحيح.

[٨]. الأنعام: ١٣

[٩]. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج٧، ص١٤١، لمحمود الألوسي أبو الفضل، الطبع: دار أحياء التراث العربي- بيروت.

[١٠]. الكهف:٢٨

[١١]. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج٣، ص٤٠١، لمحمد بن علي الشوكاني.

[١٢]. الأنعام:١٥٣

[١٣]. روح المعانى، ج٨، ص٥٧

[١٤]. الفاتحة ٦-٧

[١٥]. البقره: ١٤٢-١٤٣

[١٦]. تفسير البيضاوي، ص٤١٥

١٧. الأنعام: ١٥٣

١٨ــ إغاثة اللهفان لإبن القيم ــ ج ــ ١، ص ١٣١

[١٩]. سورة البقره: ١٤٣

[٢٠]. لسان العرب ٤٣١/٧

[٢١]. موقع القرضاوي، تاريخ: تاريخ النشر: الإثنين ٢٠٠٩/٨:٨م.

[٢٢]. رواه المسلم في القدر.

[٢٣]. سورة الإسراء:٢٣

[٢٤]. آل عمران: ٦٤

[٢٥]. الإسراء: ١١٠

[٢٦]. سورة الجمعة: ٩

[٢٧]. سورة لقمان: ١٧

[٢٨]. سورة لقمان: ١٩

[٢٩]. الاسراء: ٣٥

[٣٠]. الأنعام: ١٥٣

[٣١]. سورة القصص: ٧٧

٣٢ــ فبيض القدير في شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ج، ٢، ص، ١٧. مطبعة مصطفي مكتبة التجارية مصر

٣٣ــ بخاري كتاب الصوم باب ٥١ــ الترمذي ، كتاب الزهد باب ، ٦٤.

٣٤ــ بخاري كتاب الأنبياء ، باب رقم ٥٠. ترمذي ،كتاب العلم باب ــ ١٢

٣٥ــ أبوحنيفة: هو الامام أبوحنيفة النعمان بن ثابت الكوفي التميمي بالولاء الكوفي أصله من أبناء فارس ، أحد الأئمة الأربعة فقيه ، مجتهد ، ولدبالكوفة سنة ٨٠هــ وتوفي سنة ١٥٠هــ ، يقول عنه الإمام الشافعي : الناس عيال في الفقه علي أبي حنيفة.

- وفيات الأعيان جــ ٥ صــ ٤٠٥ــ البداية والنهاية جــ ١، صــ ١٠٧،شذرات الذهب جــ ١ ص ــ ٤٣٧.
- أبويوسف هو يعقوب بن ابراهيم الكوفي الحنفي قاضي القضاة، ولد ١٣١ هــ وتوفي ١٨٢هــ ، هو من أصحاب أبي حنيفة / وفيات الأعيان جــ ٤ ص ، ٤٠٠.
- هو الامام أحمد بن حنبل ، أبو عبدالله الشيباني الوائلي ، إمام المذهب الحنبلي ، ولد ١٦٤هــ وتوفي ٤٣٨. أمتحن في مسئلة خلق القرآن في زمن المعتصم وضرب وسجن ثمانية وعشرين شهرا / وفيات الأعيان ــ ج ١ ، ص ١١٧. صفة الصفوة لإبن الجوزي / ج ــ ٧، ص ــ ١٩٠، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج ــ ٩ــ ص ، ٤٤٥.
- محمد بن الحسن الشيباني : هو أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة ولازم أبايوسف، توفي ١٨٩هــ / الأعلام للزركلي:ج ــ ٣ ــ صــ ١٨٢.

[٣٦]. آل عمران: ١١٠

[٣٧]. سورة الشمس: ٧-١٠

[٣٨]. الإسراء: ٢٩

[٣٩]. سورة الفرقان: ٦٧

[٤٠]. سنن الترمذى باب البر والصلة ٤/٣٦٠، برقم: ١٩٩٧، وصححه الأباني في الجامع الصغير وزيادته ١/١٨، برقم: ١٧٨

[٤١]. صحيح البخاري ٥/٢٢٥٣، برقم: ٥٧١٨

[٤٢]. صحيح البخاري، ٣/١٢٧١، برقم: ٣٢٦١

[٤٣]. الشورى: ٤٢

[٤٤]. المائدة: ٨

[٤٥]. الشورى: ٣٩

[٤٦]. الشورى: ٤١

[٤٧]. صحيح الخباري ١/٢١، برقم: ٣٤

[٤٨]. القلم: ٢٨

[٤٩]. الفاتحة: ٦-٧

[٥٠]. موقع القرضاوي:

١&version=٥٣٢.&item_no=٢http://www.qaradawi.net/site/print
Article.asp?cu_no=:١&static=١٣&parent_id=١١٩&template_id